ديوان مشقة آدم
دراسة في ضوء النقد الثقافي

م . د مهند كريم سلمان
وزارة التربية – مديرية تربية الرصافة/٣
mohanadalsalman50@gmail.com

(مُلَخَّصُ البَحث)

إنّ الهدف الأساس في النقد الثقافي فهم إشكالية الثقافة بجميع أشكالها المركبة والمعقدة وتحليل السياقات الفكرية المختلفة في إطار ما هو واضح؛ لأنّ الدراسات الثقافية ليست نظامًا وإنّما هي مصطلح تجميعي لمحاولات عقلية مستمرة ومختلفة في آنٍ واحد .

يشتغل النقد الثقافي على نقد الأنساق الثقافية التي ينطوي عليها الخطاب الادبي والثقافي العام بكل انماطه وصيغه، إذ إنّ النقد الثقافي فرع من فروع النقد النصوصيّ العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الالسنية)، فهو معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وانماطه وصيغه، لذا كان اهتمامه بالنصوص الأدبية أكثر من أيّة علاقة أخرى .

تأسيسًا على ما تقدم سأحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على ديوان (مشقة آدم) للشاعر ستار عبد الله، وعلّة تلك المحاولة متأتيةٌ مما وجدته من هيمنة واضحة لأنساق ثقافية غلفت قصائد الديوان . استدعت طبيعة الدراسة أنْ يُقسّم على محاور ثلاثة وتمهيد، فكان التمهيد مخصصًا لتسليط الضوء على مفهوم النقد الثقافي، أمّا المحور الأول فكان تحت عنوان: تهشيم النسق، والثاني: المرأة أنموذجًا نسقيًا، والثالث: نفي (الأنا) .

المقدمة:

يعدُّ النقد الثقافي من أحدث التوجهات النقدية والفكريّة التي عرفها العالم الغربي مع نهايات القرن العشرين، ويعنى بالبحث عن الثقافيّ داخل الأدبيّ، وقد ظهر النقد الثقافي إثر الدعوة إلى نقد (جديد) يعتمد مبدأ تجاوز مقولات النقد الأدبيّ، وعلى رأسها الجمالية، فهو – أعني النقد الثقافي – يدعو إلى نقد ثقافيّ يهتم بالأنساق الثقافية المضمرة خلف البناء اللغوي، وهو بذلك معني بكشف الحيل البلاغية

وتجاوز الجمالي الى ما تنطوي عليه النصوص من أنساق ثقافية مضمرة ينطوي عليه الخطاب اللغويّ بشكل عام .

والنقد الثقافي بذلك، هو نشاط أو فعالية تعنى بالأنساق الثقافية التي تعكس مجموعة من السياقات الثقافية والتاريخية والاجتماعي والاخلاقية والانسانية والقيم الحضارية، بل حتى الأنساق الثقافية الدينية والسياسية، لذلك فهو يتعامل مع النص الادبي ليس بوصفه نصًّا جماليا بل يعده بمثابة نسق يؤدي وظيفة نسقية تضمر ما هو مضاد للمعلن في النص الادبي[١] .

وإذا كانت مهمة النقد الثقافي هي تلك، فمما لاشك فيه، ان الشعر هو الميدان الأرحب لتراكم الانساق المضمرة، كونه يعني بالجمالي والبلاغي، فالشعر – أساسًا – يحتوي عيوبا نسقية مضمرة خلف قناع الجمالي والبلاغي، والشاعر المجيد الفحل هو من يتمكن من ممارسة تلك اللعبة بصورة تجعله شاعرًا مجيدًا .

من كل ذلك، ارتأيت أنْ أسلط الضوء على ديوان مشق آدم للشاعر (ستار عبد الله)؛ لِما وجدتُ من هيمنة واضحة لأنساق ثقافية غلفت قصائد الديوان .

وقد استدعت طبيعة الدراسة أنْ يُقسّم على محاور ثلاثة، يسبقها تمهيد تناولت فيه مفهوم النقد الثقافي ومجال اشتغاله بصورة مختصرة، أمّا الاول فكان تحت عنوان: تهشيم النسق، والثاني: المرأة أنموذجًا نسقيًا، والثالث: نفي (الأنا) .

في النقد الثقافيّ:

تمثلُ الثقافة النمو التراكميّ للتقنيات والعادات والمعتقدات لشعب من الشعوب، يعيش في حالة الاتصال المستمرّ بين أفراده، وينتقل هذا النمو التراكميّ إلى الجيل الناشئ عن طريق الآباء وعبر العمليات التربوية[٢]، كذلك تمثل الثقافة "وعي الفرد لذاته بِما هوَ كائِنٌ مُفكر، وكذلك لعلاقته مع الآخرين، ومع الطبيعة، فيكون المثقف بالتالي هو الإنسان الذي يعي نفسه، ويحدّد موقعه"[٣] .

لذلك عرف النقد الثقافي بوصفه نشاطًا وليس مجالاً معرفيًّا قائمًا بذاتِه، ولهُ مهمّة متداخلة ومترابطة ومتجاوزة ومتعددة، الامر الذي احدث تغييرا مهما في منهج تحليل الخطابات واستثمار المعطيات النظرية والمنهجية لحقول معرفية متداخلة كالسوسيولوجيا والتاريخ والسياسية والتفكير، زيادة على الادب بما يشتمل عليه من نظرية الادب والجمال والنقد، وبمقدوره ايضا ان يفسر نظريات علم العلامات والتحليل النفسي والنظرية الماركيسية والاجتماعية والانثروبولوجيا[٤] . يقول الرباعي واصفا مجال الدراسات الثقافية "وباختصار فان الدراسات الثقافية تجمع اطيافا مختلفة تشبه في تجمعها الوان قوس قزح المتنوعة"[٥]

وتنامى هذا الاتجاه المعرفي في نهايات السبعينيات من القرن العشرين ومطلع الثمانينيات على يد عدد من الدارسين في طليعتهم (ستيفن غرينبلات) ويعد هذا الاتجاه من افرازات ما بعد البنيوية حيث يذهب الى ما هو ابعد من النص ليحدد الروابط بينه وبين القيم من جهة وبين المؤسسات والممارسات الثقافية من جهة ثانية"[٦].

ويولي النقد الثقافي أهمية كبرى لدور المؤسسة العلمية والثقافية كيفما كانت في توجيه الخطاب والقرّاء نحو نماذج وأنساق وتصورات يتأسس معها الذوق العام وتتعلق بها الصياغة الذهنية والفنية، وتصبح معيارًا يحتذى به أو يُقاس عليه[٧] .

ومما لاشك فيه انّ الهدف الرئيس في النقد الثقافي فهم إشكالية الثقافة بجميع اشكالها المركبة والمعقدة وتحليل السياقات الفكرية المختلفة في إطار ما هو جلي في حدِّ ذاته، ذلك إن الدراسات الثقافية ليست نظامًا وإنّما هي مصطلح تجميعي لمحاولات عقلية مستمرة ومختلفة في آنٍ واحد[٨] .

يشتغل النقد الثقافي على نقد الانساق الثقافية التي ينطوي عليها الخطاب الادبي والثقافي العام بكل تجلياته وانماطه وصيغه، إذ ان النقد الثقافي "فرع من فروع النقد النصوصيّ العام، ومن ثم فهو احد علوم اللغة وحقول (الالسنية)، معني بنقد الانساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وانماطه وصيغه، ما هو رسمي وغير مؤسساتي ... وهو لذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الادبي وانما همه كشف المخبوء من تحت اقنعة البلاغي/ الجمالي"[٩] . لذا كان اهتمامه بالنصوص الأدبية أكثر من أيّة علاقة أخرى؛ لأنّ وراء كلّ نصٍّ جماليّ نسقًا غير مُعْلن، وربّما كائنًا مضادًّا للجمالي، فمشروع هذا النقد "يتجه الى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خافية، وأهمّ هذه الحيل (الجمالية) التي من تحتها يجري تمرير أخطر الأنساق وأشدّها تحكُّمًا فينا، وأمر هذه الحيل يصبح كشفها مشروعًا في نقد الثقافة، وهذا لن يتسنى إلا عبر ملاحقة الأنساق المضمرة ورفع الأغطية عنها"[١٠].

وقد ذكر الدكتور عبد الله الغذامي أنّ في الشعر العربي جمالاً، لكنه أيضًا ينطوي على عيوب نسقية خطيرة جدًّا، نتيجة عيوب في الشخصية العربية ذاتها، إذ أوجدت تلك الثقافة شخصية الفحل ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر، ولعبة المادح والممدوح التي انطوت على كثير من الكذب والزيف[١١] .

وممّا لا يقبل الشك انّ العيوب النسقية لم يكن الشاعر وحده من صنعها، إذ كانت ثقافة المستهلك للنصوص هي من سوَّغت لرواج مثل تلك العيوب النسقية،

لذلك "تأتي وظيفة النقد الثقافي من كونه يهتم في نقد المستهلك الثقافي وليس في نقد الثقافة هكذا بإطلاق، أو مجرّد دراستها ورصد تجلياتها وظواهرها"[١٢] . فضلاً عن ذلك فقد وسعت الدراسات الثقافية دائرة اشتغالاتها، إذ "صار ممكنًا أنْ تدرس النصوص والخطابات برؤى ومنهجيات مختلفة لا تنحصر في الوسائط اللغوية أو الجمالية، بل ضمن الوسائط الاتصالية، والوظائفية المستحدثة المختلفة التي أشاعتها الثقافة (السمعبصرية) الجديدة ووسائط الاتصال الجماهيرية والشعبية ووسائط الميديا والصورة، بما عرف بـ(نقد ثقافة الوسائل) عند كلنر"[١٣] .

إنّ النقد الثقافي لا يتقاطع مع دورِ النقد الأدبيّ بقدر ما يتبنى مساحة أخرى لم يفطن لها النقد الأدبيّ الجماليّ من قبل، وهي الدلالات المضمرة خلف لغة النص، أو ما يسمى: (النسق المضمر) الذي لا بدّ له من جماليات النصّ حتى يختفي خلفها بشكل عميق وآمن، إذ إنّ وظيفة النقد الثقافي إبراز القبحيات المضمرة بدلاً من التركيز على الشيفرات الجمالية[١٤]، وعليه فإنّ "جمالياته العظيمة تخبئ قبحيات عظيمة أيضًا"[١٥] .

يرتكز النقد الثقافي على مقولة جوهرية في عمله يحاول دائما كشفها والوقوف على تجلياتها وهي مقولة الفاعل الثقافي/ النسق الذي يعرف على انه مصطلح نقدي تولد من خلال التقاء مفهوم النسق العام مع مفهوم الثقافة ويشمل التقاليد والنظم والقيم والمرجعيات الثقافية المتفاعلة فيما بينها والتي يكسبها الانسان في مجتمع ما لتؤدي الى نظام متوارث ومتفق عليه ينتقل من جيل الى اخر بطرق عدة كالمحاكاة والتكرار والممارسة الشعورية وهذه النظم تحرك الفعل الثقافي والسلوك الاجتماعي[١٦]، وهي ذات صلة وثيقة بإنتاج أيّ خطاب ابداعي أو فكري وبطرق تلقيه فهو يعمل على التحكم بالوجدان العام للإنسان[١٧] . بوصفه برنامجًا يتحكم في الافعال والافكار المستقبلية لأبناء الجماعة الممثلة لهذا النسق الثقافي[١٨].

والنقد الثقافي بمنظوره هذا هو وليد الدراسات الثقافية التي ظهرت إرهاصاتها المبكرة بعد الحرب العالمية الأولى ونمت وتكاملت في عصر النهضة الأوربية. والدراسات الثقافية هذه التي أثمرت كما يرى – آرثر ايزابرجر – نشوء النقد الثقافي، مختلف في تحديد بدايتها. فيما يرى برجر أنها نشأت في السبعينيات حين شرع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام في عام ١٩٧١ في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية[١٩] . نجد بعض الباحثين يذهب إلى ان الدراسات الثقافية ارتبطت بمدرسة فرانكفورت في أمريكا وارتبطت من ناحية أخرى بجامعة برمنجهام، اذ ألف العديد من المثقفين المرتبطين بمعهد البحوث الاجتماعية

الماركسي عام١٩٢٣ في فرانكفورت دراسات علمية حول القاعدة الاقتصادية للمجتمع خلال العشرينيات ثم حولوا اهتمامهم خلال الثلاثينيات إلى الأبحاث المتعددة المجالات في دراسة البنية الفوقية للثقافة[٢٠] .

أولاً: تهشيم النسق:

ليس من اليسير على الشاعر تهشيم نسق ثقافي معين غرس معوله في أرض الثقافة الجمعية لمجتمع ما، إذ "إنّ الطاقة النسقية أقوى من قدرة شخص مفرد"[٢١]؛ فعملية إحلال نسق بديل لنسق له السلطة والهيمنة وله القوة الضاربة لمواجهة أيّ محاولة لكسر الهيمنة النسقية التي انغرست في أعماق الوجدان الثقافي العربي عملية صعبة جدًّا .

في ديوان مشقة آدم نلاحظ أنّ الشاعر كثيرًا ما حاول أنْ يهشم النسق المهيمن؛ ليؤسس لنسق آخر بديل للنسق المهيمن، إذ يمثل الرجل/ الفحل في الثقافة العربية النسق المهيمن، ويمثل النسق الهامشي/ المرأة نسقًا ثانويًّا يوظف لخدمة النسق المهيمن .

إن محاولة الشاعر تهشيم النسق المهيمن هو بمثابة اعتراف بعدم قدرة النسق المهيمن/ الرجل على ردّ كيد أو مكر النسق الثانوي/ المرأة، وعلّة ذلك الأمر متأتية من قناعة الشاعر بأنّ المهمش والمهمل في الثقافة العربية لم يعد مهمشًا ومهمَلا، بل أصبح كيانًا له السيادة والتسلط والتحكم بمصير النسق المهيمن .

نجد ذلك التهشيم في قصيدته (سعادة)، إذ يعمد الشاعر إلى تهشيم نسقية ذاته بعد أنْ حُرِمَ السعادة، فلم يذق طعم السعادة أبداً، فقد تساوى ماضيه وحاضره . يقول في قصيدته:

لا أذكر أنّي كنتُ سعيدًا
في يومٍ ما
أو أنّي طربتُ بعيدًا
تحملني سحبُ الفرح
لا أذكر
أنّي متُّ من الضحك
وتساقط فوق حصى الصمت
جذلا ... صوتي
وشذا مرحي[٢٢]

إنّ بقاء ذات الشاعر مرهونة بالحاضر، ذلك الحاضر المرتبط بالماضي يؤشر حالة الشقاء وانعدام السعادة، الأمر الذي يشير إلى تهشيم نسقية ذات الشاعر، تلك الدلالة بينة في قوله: (لا أذكر أنّي كنت سعيداً)، (أو أنّي طِرْتُ بعيداً)، (لا أذكر أنّي متُّ من الضحك)، وإنّ المسؤول عن حال الشاعر تلك، امرأة غادرة لعوب لا وفاء لها تتسم بالغدر، لذلك ينفي الشاعر السعادة عن نفسه وعدم تذكرها، سوى انه يتذكر غدر تلك المرأة: (بل أذكرُ حتى رائحة الغدر)، وفي ذلك إيماءة الى احتراف تلك المرأة الغدر لدرجة جعلت الشاعر يركز على أدقّ الجزئيات في ذلك الغدر (رائحة الغدر):

بل أذكر
حتّى رائحة الغدر
وعقارب عينيها
تتسلل من وكرِ المكر
لتقرَّ مشاغبةً
في حافظتي
وشذا حلمي(٢٣) .

ويستمر التهشيم النسقيّ لنجده أخذ معوله في قصيدة (من أوراق امرأة ما) ليشهم مرتكزات معروفة . يقول في الورقة الأُولى (ورقة الخيانة):

منذُ تسعة آلاف عام
حينَ فاجأتُها ..
ترتدي رجلاً مُفعماً
صحت
ثمَّ صرخت
وقلتُ الذي قلته
وكسرتُ على عُرْيها
ما تبقّى لنا من حطام
*** * ***
منذُ تسعةِ آلافِ عام
وأنا ذاهِلٌ
وبقلبي تحجَّرَ
ما كنتُ أرغبُ في رميهِ

من كلام !! [٢٤]

يعمدُ الشاعر إلى تهشيمِ النسقِ السائدِ تهشيمًا مساويًا لموقفه من المرأة المتصفة بالخيانة؛ لذلك جاءت عبارة (منذُ تسعةِ آلاف عام)، لتختزل معاناة آدم/ الرجل، وتكونَ مؤشرًا لحالة الألم الممض والمعاناة التي تلازمه، إذ تشكل المفارقة عنصرًا أساسًا في تهشيم النسق، وذلك متأتٍّ من انحراف المقاييس الزمنية عن مرجعيتها المعتادة؛ ليدلّلَ الشاعر على انفتاح الزمن على اللامتناهي واستمرار حال الرجال على ما هي عليه من معاناة، وحال المرأة على ما هي عليه من الغدر والخيانة، مستعينًا بتكرار عبارة (منذُ تسعةِ آلاف عام)؛ ليؤكدَ أنّ موقفه من المرأة موقف متساو مع تجاربهِ الوجدانية .

٢- المرأة أنموذجًا نسقياً:

الإشكاليّة الأساسيّة التي تُواجِهُنا في الحديث عن المرأة بوصفها أنموذجًا نسقيًا في ديوان مشقة آدم تتمثل في علاقة المرأة بالرجل، اختلافاً، وتوافقًا، وقسوة، وأُلفة؛ ذلكَ لأنّ النسيجَ العامَ لديوانِ (مشقة آدم) يدور حول هذه العلاقة الشائكة . وربما كانت تلك الإشكالية متأتيةٌ من كونِ الشاعر هل يفكر بعقله المجرد، أو بقناعات شخصية لما يطرحه عن المرأة، أم انّه يفكر بعقل المجتمع بما يشتمل عليه من تراكمات كمٍّ هائلٍ منَ الأنساق الثقافية الموروثة التي ترسَّختْ في ذهن المجتمع عبر العصور المختلفة فصارت نسقًا ثقافيًا لا يملك الشاعر الحرية في تبنّي نسقٍ آخرَ مضادٍّ للنسق الموروث، فضلاً عن أنّ ذلك الأمر انسحبَ حتّى على الفرد، فصارَ "لا يفكر بعقله المجرّد، بل بعقل مجتمعِهِ فهو ينظر في الأمورِ ويُميّزُ بين الحسن والقبح فيها حسب ما يوحي به المجتمع إليه لا ممّا يبصره بهِ عقله؛ لأنّ تفكيره يجري في نطاق القوالب والخطوط التي صنعها المجتمع له"[٢٥] .

تُمثّلُ المرأة مادةً لكثيرٍ من الشعراء يستثمرونها لتحتلَّ مساحة واسعة من نتاجهم الشعري، وقد تعدّدت صورُ المرأة فكانت أنموذجًا نسقيًّا إيجابيًّا (أُمّاً – وزوجةً – وبنتًا – وحبيبة)، وفي جانبٍ آخرَ كانت المرأة في نظر بعض الشعراء تمثل أنموذجًا نسقيًّا سلبيًّا (المرأة الغاوية – الخائنة – المومس – الغادرة ...) . فكانت المرأة في الجانب السابق تمثلُ أنموذجًا نسقيًّا جرت العادة أنْ يتناولها الرجال، وفي ذلك انشداد إلى نسق ثقافي سائد يرزح تحت مظلة التقاليد الاجتماعية، أو النظرة الدونية للمرأة .

كلٌّ منّا أو الاعم الاغلب يؤمن بأنّ المرأة ليست جسدًا فحسب، ولكنها ايضا عقل ووجدان، إلا انّ ذلك الامر ينتفي بحضور خطاب جمالي بلغة منمقة يصور جسد المرأة على انه معطى شبقي(٢٦) .

في شعر ستار عبد الله يهيمن الانموذج النسقي السلبي للمرأة، هذا الانموذج النسقي للمرأة، بوصفها أداة من ادوات الاغواء وحبلا من حبائل ابليس، ومصدر إلهامه في إغواء الرجال .

يعمدُ في قصيدته (حالان) إلى تجريد الكائن النسقي/ المرأة من كلّ صفات حسنة ارتبطت بها على مدى العصور:

الحياةُ
بغيرِ النساء
رفعة
وقلوب تنام على نبضها
لا خيانة تربكها
أو يُفتّتُها الغدر
فوقَ زهوِ الرياء !(٢٧)

إذا كانت المرأة تمثل مصدر الإلهام والحنان وعنصر استمرارية الحياة، فمن دونها تصبح الحياة قاسية لا طعم لها، فإنّ الشاعر، هنا، يتمرد على ذلك الأنموذج الإيجابي للمرأة، ليعطي صورة مغايرة لها، فلا رفعة في الحياة إلا بدونها، إذ تمثل المرأة – في نظر الشاعر – مصدر الإذلال والهموم للرجل، وفي ذلك انشداد لنسق لثقافي مهيمن يرى أنّ المرأة حبل من حبائل الشيطان .

ويستثمر الشاعر في قصيدة (حلول ابليس)، الحمولات التراثية لتكون مادة لقصيدته، ولا أعني أنّ الشاعر حاكى قصة إبليس محاكاة حرفية؛ لأنّ في ذلك هبوط للقيمة الفنية، إذ وظف الشاعر تلك القصة توظيفًا يتواءم مع السياق العام لديوان مشقة آدم؛ ليعبر عن حيرته، وتلك الحيرة متأتيةٌ من تمكّن تلك المرأة من الرجال، فهم عاجزون أمامَ مكرها وفخاخها . يقول:

لمّا فسق
إبليس عن أمر الله
ومضى عن جنته
يتجرع منفاه
سأضلهم – قال –

وسأجعلهم
لفسوقي أتباعا .
لكن وساوسه
لما خرجت عن عزلتها
تتحرى عمن تخنس فيه نوازعه
وزيوغ أناه
لم تلق سوى امرأة
تتدلى
من أغصان الفتنة عارية
يتشهى الضوء بريق مفاتنها
قال: سأتوجك
وسأنثر فيك شواظ دمي
.....
ثم أورق في عُرْيِها
قوسه
ويدا كيده
وعصاه!(٢٨)

افتتح الشاعر قصيدته بسرد قصة راسخة في المخيال الجمعي لعامة المسلمين ولسواهم، وهي قصة طرد إبليس من ساحة الرحمة الإلهية حين عصى أمر ربّه، فكان إبليس بهذا الأمر شرّاً مطلقًا وضلالاً لعباد الرحمن، وحين أراد إبليس أنْ يبدأ مشروعه الإغوائي لم يجد أفضل من ذلك الكائن/ النصف الآخر للرجل؛ ليكون أداته في مشروعه الإغوائي .

كلّ ذلك كان بمثابة بوابة لإلصاق تهمة العار والذنب بالمرأة/ الكائن النسقي، لكونها هي من تغوي الرجال، مثلما أغوت آدم وأخرجته من الجنة، وفي ذلك نسق ثقافي درج عليه المجتمع من أنّ المرأة معلم الشيطان، أو هي شرّ لا بدّ منه .

وعمد الشاعر في قصديته إلى تهشيم الانموذج النسقي (إبليس) الذي يمثل الشرّ المطلق، فعلى الرغم من تمكّن إبليس من إغواء بني آدم باستثناء المخلصين من العباد، فهو يبدو كائنًا صغيرًا أو تلميذًا أمام المرأة التي تُمثّلُ مادةً أساسية لمصدر إغوائه .

ونجد في ديوان مشقة آدم أنموذجًا نسقيًّا آخر للمرأة يبدو منبتًّا عن السياق العام لقصائد الديوان، هو الأنموذج الإيجابي، ويرتبط هذا النموذج في الغالب بصورة المرأة (أمّا – أختا – زوجة – حبيبة وفية – بنتا) . وهذا أمر طبيعي متجذر في المجتمع العربي نتيجة سيادة القيم الاجتماعية القبلية والدينية والعرفية، إذ إنّ هذا الأنموذج من النساء يمثل خطوطًا حمراء يجب التعامل معها بحذر نتيجة هيمنة القيم الاجتماعية والعرفية، فهذا النموذج مرتبط أساسًا بالرجل، ويمثل مرجعية أخلاقية واجتماعية بنسفه تُنْسَفُ قيمة الرجل وسمعته .

في هذا الانموذج تختلف نظرة الشاعر عن النساء، أو لنقل انّه يستثني هذا الأنموذج النسقي من بقية النساء، فالنساء لسن سواء، وأنّ ثمة فروقاً هائلة ما بين النساء في نقاط السلب والإيجاب، ومواضع الحمد والذم . فالمرأة ليست (غواية)، ولا (شيطاناً) كما أنها ليست هي نسخة واحدة عن (حواء) أو (زليخة) وإنْ بدت كذلك في بعض النماذج، إنهنّ نساء لهن خصوصية عند الشاعر يعيش معهن في هناء وسعادة، من غير أنْ تنغص تلك السعادة بغدر أو خيانة .

في ديوان مشقة آدم قصيدة يتيمة تخص الانموذج النسقي الإيجابي للمرأة، هي (قبل فوات الأوان)، وتبدو غريبة عن بقية القصائد، فهي لا تنتمي إلى بقية القصائد . يقول في قصيدته (الى جنان):

-١-

تستبقُ النهار

مشدودة

إلى اخضرارِ عينيها

أوراقنا

في هذهِ الأشجار

-٢-

بين حقولِ أضلعي

يطيرُ ذلك الفَنَن

لكي تظلَّ في دمي

فاكهة جمالها

يانعة ...

بعيدة ...

لا تستطيع قطفها

يد الزمن![٢٩] .

لغة القصيدة، هنا، تختلف عن بقية قصائده عن المرأة، فألفاظها رقيقة هادئة خلعت على المرأة أجمل الصفات وأحبها إلى النفس، فهذه المرأة تمثل مصدر الإلهام والأصل الذي تتفرع من بقية الفروع التي تنبت الأوراق، وفي ذلك إيماءة إلى أنّ تلك المرأة تمثل مصدر الحياة واستمرارها، ومن دونها تصبح الحياة مستحيلة .

ويصل الحال بالعاشق/ الشاعر، الى حالة من الذوبان في حب تلك المرأة/ الزوجة، ذلك الحب الذي يجعله نشوانًا (يغرق في أمنية العبور !) .

العاشق الصبور

يدور حول السور

جنانها

تشرب من حروفه

وصوته

يغرق في امنية العبور! [٣٠]

ثالثًا: نفي (الأنا):

على الرغم من أنّ الشعر العربي يحتوي جمالاً وصورًا تشد المتلقي وتثير فيه استجابة، إلا انه في الوقت نفسه لا يخلو من عيوب نسقية مضمرة تحت قناع الجمالي والبلاغي، تلك العيوب لها دور فاعل في تشكيل شخصية عدد من الشعراء "كانت صياغة الشعر لديهم صياغة سلبية أنانية خلقت أنماطًا سلوكية ارتبطت بالإهمال الاجتماعي والتهميش السياسي، فإحساس الشاعر بالهامش دفعه الى نوع من الخطاب المتعالي عبر الأنا المتضخمة لإثبات ذاته بوصفه فحلاً امتهنَ مهنةً لا يقوى عليها إلا الفارس الشجاع"[٣١].

إنّ الشاعر الذي يمجد ذاته "هو في الواقع يتقصاها ويتقراها"[٣٢]، لذلك فهي ذاتية نرجسية تغاير نرجسية علم النفس/ سايكولوجية الروح وتعلو فوقها[٣٣].

ونجد الشاعر في قصيدة (مشقة آدم) ينسف ذاته نسفًا مساويًا لخيبته، وفي ذلك نسف لنسق ثقافي له السيادة في نتاج الشعراء على مرّ العصور، هو (النسق الفحولي)، فصورة هذا النسق حاضرة في الذاكرة الثقافية العربية، حتى صار نسقا ثقافيا درج الشعراء على استلهامه، فالشاعر هو الرجل الذي تسعى اليه النساء ويتطلعن الى لقائه . عمد الشاعر الى نفي ذلك النسق وتهشيمه فكان الرجل/

الشاعر، يرزح تحت ظل الخيبة والحيرة، منكسرًا على غير عادة الشعراء في تصوير بطولاتهم ومغامراتهم مع النساء:

أقفز فوق الريح
محملا ...
بخيبتي ...
وزهوي الجريح
مخلفا ورائي
ذاكرتي
وكل ما كنت قد ادخّرته
من عزّة
أو كبر
وما ظنت أنّه
لا تستطيع امرأة
تمزيقه
ستائري ...
وثوب كبريائي ...
خاو ... أنا
عارية أجنحتي
أسابق الأرواح
في مجاهل الفضاء
اسرع نحو غابة الجنون
حيث الرجال يضحكون
مما تعرى بينهم
من كذب النساء(٣٤)

النص هنا، مغادرة لنسق ثقافي جرت العادة أنْ يوظفه الشاعر في قصيدته، وعلّة ذلك متأتية من النزعة الفحولية والأنا المتضخمة؛ ليظهر الشاعر هو المتسيد والمسيطر وصوته أعلى من صوت الآخر وله اليد الطولى والكلمة الفصل، فضلا عن ذلك فإنّ النص محمل بحمولات الخيبة والخسارة، وهي نتيجة حتمية تفرضها تلك المرأة الغادر اللعوب التي مزقت ستار العزة والكبرياء .

يكتنز النص بطاقة تصويرية تشخيصية استثمرها الشاعر ليضفي على ابياته جمالا، فشخصنة الزهو، والثوب وجعلهما جريحين (زهوي الجريح)، (ثوبي الجريح)، دلالة على مدى الألم الممض الذي أحاط بوجدان الشاعر وسلب منه كل صورة ايجابية عن المرأة، أو ربما حشد كل تلك الصور التشخيصية لتكون وسيلة إقناعية تشغل القارئ عن المضمرات النسقية، فالشاعر استطاع بقدرة بلاغية ان يجيد لعبة البلاغي فضيفي على نصه حركة وحيوية تشد المتلقي .

إنّ الذات محطمة ومستلبة نتيجة هيمنة ذات النسق المضاد/ المرأة، لذلك كان الحلم خير وسيلة يتخذها الشاعر لإثبات ذاته . يقول في قصيدته (ليس إلا حلما):

(١)

منذُ عهدٍ بعيد
وأنا أتبخترُ في حلمٍ
مثل أيّ أميرٍ سعيد
والنساء على جانبي
وبين يدي
يُضئنَ إذا ما وقفت
قطوفًا تلوح دانيةً عارية
ثمّ من دون شيء يكدرني
رحتُ أُلقي بهنَّ الى سرر
من دخانٍ مبين
تتلقفهنَّ بها لاهيهْ
نارُ الحاميهْ[٣٥]

نفي الأنا وإقصاؤها يمثل ثيمةً بارزة من ثيمات النص، تتمثل في عجز الرجل عن بلوغ مُناه بأن ينتقم من المرأة الغادرة اللعوب في الواقع، لذلك كان الحلم خير وسيلة يلجأ لها ليحقق رغبته في الانتقام من تلك النساء .

مما تقدم يتبين أن الشاعر ستار عبد الله في ديوانه (مشقة آدم)، كان بين حركتين: مدّ، وجزر، فتارة نراه مشدودًا إلى نسق موروث، متمثلاً له، فبدا محاكيًا أسلافه الشعراء في عنايته بتقاليد الشعر وأعرافه فكان منطويًا تحت الجماليّ على حساب العيب النسقي، وتارةً أخرى وجدناه متجاوزًا لتلك الأعراف والتقاليد الشعرية، فكسر بذلك قيد التقليد ومحاكاة النماذج الأخرى فيما يخص (الفحول، والأنا المتضخة) .

هوامش البحث

(١) ينظر: النقد الثقافي من النصّ الأدبيّ الى الخطاب، د. سمير الخليل، ٧ .
(٢) ينظر: مفهوم الثقافة بين اللغة والاصطلاح، مجلة البصائر الالكترونية:
http://albasaer.org/index.php/post/61
(٣) التداخل الثقافي، د. محمود الربداوي، مجلة التراث العربي، العدد (٩٨)، حزيران ٢٠٠٥، السنة الخامسة والعشرون، ص٨ .
(٤) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، د. حفتاوي بلعلي، ص١١-٢٧ .
(٥) تحولات النقد الثقافي، عبد القادر الرباعي، ص١٥ .
(٦) نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، طارق بوحالة، ص١٣٦ .
(٧) ينظر: النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، د. عبد الله محمد الغذامي، ٣٤- ٣٥ .
(٨) ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ١٥ .
(٩) النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، ٨٣- ٨٤ .
(١٠) المصدر نفسه، ٧٧ .
(١١) المصدر نفسه، ٩٣- ٩٤ .
(١٢) المصدر نفسه، ٨١ .
(١٣) بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، د. بشرى موسى صالح، ص٧-٨ . تجدر الاشارة الى ان نقد ثقافة الوسائل عند كلنر هو النقد الذي يهدف الى تحطيم الفواصل التقليدية بين الثقافات واحداث ثورة في حقل الاتصالات، لان الثقافية ذات طبيعة اتصالية، وهي ليست انتاجا فحسب، انما هي وسائل توزيع واستهلاك، فالاتصال براي كلنر يحدث ضمن ستراتيجية نقدية ثلاثية، هي: قراءة الهيمنة، والتحاور، والمعارضة . ينظر: مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، ص٤٢.
(١٤) ينظر: جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا، د. يوسف عليمات، ص٣٣.
(١٥) النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، ٩٤ .
(١٦) الانساق الثقافية في كتاب الاغاني. رائد حاكم شرار الكعبي، ص٧-٨ .
(١٧) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ٨٢ .
(١٨) ينظر: تمثيلات الآخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، ٩٦.
(١٩) ينظر: النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، آرثر ايزا برجر: ٣١ .
(٢٠) ينظر: النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات حتى الثمانينات، فنسنت ب . ليتش: ٣٧- ٣٨ .
(٢١)النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ١٥٨ .
(٢٢) مشقة آدم: ١١٩ .
(٢٣) المصدر نفسه، ١٢٠- ١٢١ .
(٢٤) المصدر نفسه، ١٧-١٨ .
(٢٥) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردي، بغداد، ١٩٦٠، ص٢.
(٢٦) النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ٨٢ .
(٢٧) مشقة آدم،
(٢٨) المصدر نفسه، ٢٥-٢٦ .
(٢٩) المصدر نفسه، ١٠٣ – ١٠٤ .
(٣٠) المصدر نفسه، ١٠٧ .
(٣١) الانساق الثقافية في خطاب الشعراء التفاك في العصر الاموي، د. احمد صبيح محيسن الكعبي، مجلة العميد، السنة الخامسة، مج٥، العدد ١٩، ايلول ٢٠١٦، ص٢٤٢ .
(٣٢) الشعراء والنرجسية، فاروق مواسي، ديوان العرب، متاح على الموقع الالكتروني:
www.aiwanalara2008
(٣٣) ينظر: جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨٠، ص٣٢ .
(٣٤) مشقة آدم، ٣٣- ٣٤ .
(٣٥) مشقة آدم، ٩٣- ٩٤ .

مصادر البحث:

اولا: الكتب .

- بويطيقا الثقافة نحو نظرية شعرية في النقد الثقافي، د. بشرى موسى صالح، ط١، بغداد، ٢٠١٢ .
- تحولات النقد الثقافي، عبد القادر الرباعي، دار جرير، الاردن، ط١، ٢٠٠٤ .
- تمثيلات الاخر، صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. نادر كاظم، وزارة الثقافة والتراث الوطني، مملكة البحرين، ط١، ٢٠٠٤م .
- جماليات التحليل الثقافي، الشعر الجاهلي نموذجا، د. يوسف عليمات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان- الاردن، ط١، ٢٠٠٤ .
- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، ١٩٨٠ .
- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي ، د. علي الوردي ، بغداد، ١٩٦٠ .
- مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن، د. حفتاوي بلعلي، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٧م .
- مشقة آدم، ستار عبد الله، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢٠١٣ .
- النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينيات حتى الثمانينات، فنسنت ب . ليتش، ترجمة: محمد يحيى، مراجعة وتقديم: ماهر شفيق فريد، المجلس الاعلى للثقافة، ٢٠٠٠م، (د.ط) .
- النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية، آرثر ايزا برجر، ترجمة: وفاء ابراهيم، ورمضان بسطاويسى، المجلس الاعلى للثقافة، ط١، ٢٠٠٣م .
- النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، د. عبد الله محمد الغذامي، المملكة المغربية – الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠١م .

النقد الثقافي من النص الادبي الى الخطاب، د. سمير الخليل، دار الجواهري، لبنان – بيروت، ط١، ٢٠١٢ .

ثانيا: الدوريات:

- الانساق الثقافية في خطاب الشعراء التفاك في العصر الاموي، د. احمد صبيح محيسن الكعبي، مجلة العميد، السنة الخامسة، مج٥، العدد ١٩، ايلول ٢٠١٦ .
- الانساق الثقافية في كتاب الاغاني. رائد حاكم شرار الكعبي رسالة ماجستير كلية التربية جامعة بابل، ٢٠١٣م .

- التداخل الثقافي، د. محمود الربداوي، مجلة التراث العربي، العدد (٩٨)، حزيران ٢٠٠٥، السنة الخامسة والعشرون .
- نظرية النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي، طارق بوحالة، رسالة ماجستير، جامعة باجي مختار، عنابة، ٢٠١١م .

ثالثا: الانترنت:

- الشعراء والنرجسية، فاروق مواسي، ديوان العرب، متاح على الموقع الالكتروني:

www.aiwanalara2008

- مفهوم الثقافة بين اللغة والاصطلاح، مجلة البصائر الالكترونية:

http://albasaer.org/index.php/post/61

Poems of hardship Adam
study in cultural criticism

Dr: Mohanad kareem salman
Education Ministry Directorate of Baghdad Rusafa/ 3
mohanadalsalman50@gmail.com

Abstract

The main objective of cultural criticism is to understand the problem of culture in all its complex and complex forms and to analyze the different intellectual contexts in the framework of what is clear, because cultural studies are not a system but a collective term for continuous and different mental attempts in one.

Cultural Criticism works to critique the cultural patterns of the general literary and cultural discourse in all its forms and forms. Cultural criticism is one of the branches of public criticism, and therefore one of the sciences of the language and the fields of "Sunni". It is concerned with criticism of the implicit form of cultural discourse In all its manifestations, patterns and formulas, so his interest in literary texts more than any other relationship

Based on the above, I will try to shed light on the (Adam's hardship) of the poet Star Abdullah, and the reason for that attempt is derived from what I found from the obvious dominance of cultural forms that covered the poems of the Diwan.

The nature of the study necessitated that it be divided into three axes: the first is the pattern of the pattern, the second is the woman as a model, and the third is the negation of the ego.